التعليم عند ابن خلدون

تيسير شيخ الأرض

مقدمة : التربية والتعليم في « المقدمة »

من يتصفح « مقدمة »ابن خلدون يلاحظ أنها ليست محاولة للبحث في التاريخ والاجتماع فقط ؛ بل انها محاولة لدراسة مسائل التربية والتعليم أيضاً ، الى جانب فروع شتى من العلوم والفنون والآداب • وهو فيها يبين آراء قيمة ، بعضها يقره عليها علم التربية وعلم النفس المعاصران ؛ وبعضها قد عفى عليه الزمان •

وقد انتبه الباحثون منذ بدء دراستهم « المقدمة » ، الى ما تتضمنه من آراء في التربية والتعليم • لكن انتباههم لم يتوقف الا على الفصول الخاصة بمباحث التربية والتعليم ؛ ولم يتعدها الى الملاحظات القيمة المبثوثة هنا وهناك ، في كثير من الفصول الأخرى • وكان أول من نبه على ذلك العلامة ساطع الحصري ؛ وهو يقول بهذا الصدد : «في مقدمة ابن خلدون آراء وملاحظات كثيرة عن التربية والتعليم • ان قسماً من هذه الآراء مدون في فصول خاصة في الباب السادس ــ باب العلم والتعليم ــ وهذه الفصول الخاصة هي التي تستلفت عادة أنظار الذين يدرسون المقدمة ، من وجهة التربية والتعليم : فان المؤلفات الباحثة في تاريخ التربية بوجه عام ، وتاريخ التربية عند العرب بوجه خاص ، انما تشير الى آراء ابن خلدون في التربية والتعليم ، حسب ما جاء في الفصول المذكورة وحدها(١) » •

وبعد أن يلاحظ هذه الملاحظة ، يعقب قائلا : « ولكننا نلاحظ أن آراء ابن خلدون في التربية والتعليم لا تنحصر في الفصول المذكورة ، حتى انها لا تتمثل تمثيلا كافياً بمباحث هذه الفصول ؛ لأن ابن خلدون قد دون كثيراً من الآراء والملاحظات التربوية في ثنايا الفصول

المختلفة ، بصورة عرضية • فاذا أردنا أن نحيط علماً بكل ما كتبه في التربية والتعليم ، يجب علينا أن نقوم بأبحاث واسعة النطاق في سائر فصول المقدمة(٢) » •

ومن هذا يتضح ما لآراء ابن خلدون من خطورة في التربية والتعليم •

١ ـ طبيعة الانسان والتربية

(١) تميز الانسان بالعقل : يرى ابن خلدون أن الانسان يتميز من الحيوان بعقله وتفكيره والنظام الذي يدخلانه الى جوانب حياته كلها • بيد أن الانسان لا يولد عاقلا مفكراً ، ولا يصبح انساناً بالمعنى الصحيح للكلمة ، الا بعد أن يبلغ سن التمييز ، التي تفصل بينه وبين الحيوان • وبهذا الصدد يقول : « وهذا الفكر انما يحصل له بعد كمال الحيوانية فيه ، ويبدأ من التمييز ؛ فهو قبل التمييز خلو من العلم بالجملة ، معدود من الحيوانات ، لا حق بمبدئه في التكوين من النطفة والعلقة والمضغة ، وما حصل له بعد ذلك ؛ فهو بما جعل الله له من مدارك الحس والأفئدة التي هي الفكر(٣) » •

بيد أن الفكر ليس كله على درجة واحدة بالنسبة الى ابن خلدون • فهو يميز فيه ثلاثة أنواع من العقل ، هي العقل التمييزي ، والعقل التجريبي ، والعقل النظري • ولكي نفهم الفرق بين هذه العقول ، لا بد لنا من فهم الوظيفة التي يقوم بها كل منها •

آ ـ أما العقل التمييزي فهو أول العقل ؛ وهو الحد الفاصل بين الانسان والحيوان ؛ وبه يبدأ العلم • ان وظيفته الأساسية هي تنظيم أفعال الانسان ؛ وجعلها تقع في مواقعها من الظروف ؛ وهي تحصل بمدارك الحس والأفئدة التي هي الفكر(٤) •

يقول ابن خلدون فيه : ومرتبته « تعقل الأمور المرتبة في الخارج ترتيباً طبيعياً أو وضعياً ؛ ليقصد ايقاعها بقدرته • وهذا الفكر أكثره تصورات ؛ وهو العقل التمييزي الذي يحصل منافعه ومعاشه ؛ ويدفع مضاره(٥) » •

ب ـ أما العقل التجريبي فهو العقل المرتبط بالتجربة في الحياة اليومية ؛ ووظيفته اقتناص العلم ؛ علم ما هو صالح ، وعلم ما هو فاسد ؛ ويكون هذا الاقتناص باستفادة المرء ذلك من أبناء جنسه(٦) ؛ ومرتبته هي الثانية ، وهي مرتبة « الفكر الذي يفيد الآراء والآداب في معاملة أبناء جنسه وسياستهم • وأكثرها تصديقات تحصل بالتجربة شيئاً فشيئاً ، الى أن تتم الفائدة منها(٧) •

بيد أن هذه التصديقات لا تبعد عن الحس ، ولا ترتفع عن التجربة ؛ فهي ابنة الحياة اليومية تظل لاصقة بها • وبهذا الصدد يقول ابن خلدون : « هذه المعاني التي يحصل بها ذلك ، لا تبعد عن الحس كل البعد ؛ ولا يتعمق فيها الناظر ؛ بل كلها تدرك بالتجربة ، وبها تستفاد ؛ لأنها معان جزئية تتعلق بالمحسوسات ؛ وصدقها وكذبها يظهر قريباً في الواقع ؛ فيستفيد طالبها بحصول العلم بها من ذلك ؛ ويستفيد كل واحد من البشر القدر الذي يسر له فيها ، مقتضياً له بالتجربة بين الواقع في معاملة أبناء جنسه ؛ حتى يتعين له ما يجب وينبغي فعلا وتركاً ؛ وتحصل في ملابسته الملكة في معاملة أبناء جنسه(٨) » •

جـ ـ وأما العقل النظري فيبلغ أعلى مستويات التجريد ، بانشائه التصورات التي ينتزعها من الموجودات ؛ فتكون مطابقة لها في حالتي الحضور والغياب(٩) • ويصفه ابن خلدون بأنه « الفكر الذي يفيد العلم أو الظن بمطلوب وراء الحس لا يتعلق به عمل • فهذا هو العقل النظري ؛ وهو تصورات وتصديقات تنتظم انتظاماً خاصاً ، على شروط خاصة ؛ فتفيد معلوماً آخر من جنسها في التصور والتصديق ؛ ثم تنتظم مع غيره ، فيفيد علوماً أخر كذلك • وغاية أفادته تصور الوجود على ما هو عليه ، بأجناسه وفصوله ، وأسبابه وعلله ؛ فيكمل الفكر بذلك في حقيقته ؛ ويصير عقلا محضاً ، ونفساً مدركة ؛ وهو معنى الحقيقة الانسانية(١٠) » •

ومن هذا نلاحظ أن الانسان ينتقل من الفوضى الى النظام ؛ ومن النفور في المعاملة الى التوافق الاجتماعي ؛ ومن الجهل بحقيقة الموجودات الى العلم بها • وكل هذا لا يتم من دون اكتساب ؛ فحياة الانسان هي انتقال من الجهل الى العلم ؛ فهو جاهل الذات ، عالم بالكسب •

(٢) شروط حصول التعليم : بيد أن التعليم لا يحصل عفو الخاطر ؛ بل له شروط تؤدي اليه منفردة أو مجتمعة • واذا اجتمعت وتضافرت فيما بينها ، كانت نتيجة التعلم أحسن وأقوى ، فما هذه الشروط ؟

آ ـ **طبيعة الفكر ذاته :** ان الفكر ميال بطبيعته الى تحصيل المعرفة ، وتعلم فنونها • انه يقتنص حقائقها حقيقة بعد أخرى ، لاشباع رغبة فيه تظل تلح عليه باستمرار • يقول ابن خلدون في ذلك : « ثم لأجل هذا الفكر ، وما جبل عليه الانسان ، بل الحيوان ، من تحصيل تستدعيه الطبائع ؛ فيكون الفكر راغباً في تحصيل ما ليس عنده من الادراكات ؛ فيرجع الى من سبقه بعلم ، أو زاد عليه بمعرفة أو ادراك ، أو أخذه من تقدمه من الأنبياء الذين يبلغونه لمن تلقاه ؛ فيلقى ذلك عنهم ، ويحرص على أخذه وعلمه(١١) » •

وهذا يعني ، ان العلم ناشىء عن طبيعة الفكر ذاته ؛ وان التعلم ميل طبيعي في الانسان ، قد يكتسبه بنفسه من التجربة ؛ أو قد يأخذه عن سواه ممن يزيده علماً •

ب ـ **العمران والحضارة :** بيد أن الفكر بنفسه قليل الغناء • ولذلك كانت كثرة العمران وعظمة الحضارة مؤديتين الى انتشار العلوم والصنائع ؛ وكان لا بد لمن ينشأ في ظل حضارة المدن ذات العمران الكثير ، من أن يتأثر بتلك الصنائع والعلوم ؛ فيتعلم أموراً كثيرة لا يمكن للبدوي أن يتعلمها الا اذا طلبها في هذه المدن • وبهذا الصدد يقول ابن خلدون: « فمتى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم ، انصرفت الى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الانسان ؛ وهي العلوم والصنائع • ومن تشوف بفطرته الى العلم ممن نشأ في القرى والأمصار غير المتمدنة ؛ فلا يجد فيها التعليم الذي هو صناعي ، لفقدان الصنائع في أهل البدو ••• ولا بد من الرحلة في طلبه الى الأمصار المستبحرة ، شأن الصنائع كلها(١٢) » •

واذا كان العقل بطبيعته ميالا الى تحصيل العلم ، فان الحضارة والعمران يكسبانه نوعاً جديداً من التفكير ، ويجعلانه سريع الادراك ، حاد الذكاء • يقول ابن خلدون في ذلك :

« وحسن الملكات في التعليم والصنائع وسائر الأحوال العادية ، يزيد الانسان ذكاء في عقله، واضاءة في فكره ، بكثـرة الملكات الحاصلة للنفس ··· ألا ترى الى أهـل الحضر مـع اهل البدو ، كيف تجد الحضري متحلياً بالذكاء، ممتلكاً من الكيس ؛ حتى ان البدوي ليظـن انه قد فاقه في حقيقـة انسانيته وعقـله ؟! وليس كذلك · وما ذلك الا لاجادته في ملكات الصنائع والآداب في العوائد والأحوال الحضريه ، مالا يعرفه البدوي(١٣) » ·

ج ـ **تعليم المعلم :** بيد أنه لا بد مـن معلم يسهل على المتعلم الصعوبات ؛ ويوضح له الغوامض · وبهذا الصدد يقول ابن خلدون : « ولهذا كان السند في التعليم في كل علم ، أو صناعة ، الى مشاهير المعلمين فيها ، معتبـراً عند كل أهل أفق وجيل(١٤) » ·

وليس هذا فحسب ؛ بل ان أثر تعليـم المعلم في تلاميذه ، انما يكون بقدر حذقـه في علمه · يقول ابن خلدون في ذلك : « وعلى قدر جودة التعليم وملكة المعلم يكون حذق المتعلم في الصناعة وحصول ملكته(١٥) » ·

د ـ **استخدام العلم :** بيد أن شـروط التعلم السابقـة لا تنتهي بتعلم المتعـلم الى كماله ، أو ما يشبه كماله ، اذا لم يستخـدم المتعلم العلوم التي تعلمها بالافصاح والمحاورة، يقول ابن خلدون شارحاً فكرته : « وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية ؛ فهو الذي يقرب من شأنها ، ويحصل مرامها · فتجد طالب العلم منهم، بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية، سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون؛ وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة(١٦) » ·

وهذا الوضع يجعل المتلعم عاجزاً عـن التصرف بالعلم الذي حفظه · وهذا دليل على ان التعلم ليس بالحفظ · يقول ابن خـلدون في ذلك : « فلا يحصلون على طائل من ملكـة التصرف في العلم والتعليم ؛ ثم بعد تحصيـل من يرى منهم انه قد حصل ، تجد ملكته قاصرة في علمه ، ان فاوض أو ناظر أو علّم · وما أتاهم القصور الا من قبل التعليم وانقطـاع سنده ، والا فحفظهم أبلغ من حفظ سواهـم ، لشدة عنايتهم به ، وظنهـم انه المقصـود من الملكة العلمية ؛ وليس كذلك(١٧) » ·

(٣) حصول ملكة العلم بالتعلم : رأينـا أن هناك أربعة شـروط للتعـلم ؛ ان هـذه الشروط اذا اجتمعت وتضافر بعضها مـع بعض في نفس المتعلم ، أدى ذلك الى حصول ملكة عنده في العلم الذي تعرض له · ولكن ، ما الملكة ؟ يقول ابن خلدون شارحاً معناهـا : « ان الحذق في العلم ، والتفنن فيه، والاستيلاء عليه ، انما هو بحصـول ملكـة في الاحاطـة بمبادئه وقواعده ، والوقوف على مسائله ، واستنباط فروعه من أصوله · وما لم تحصل هذه الملكة ، لم يكن الحذق في ذلك المتنـاول حاصـلا(١٨) » ·

بيد أنه ينبغي لنا أن لا نخلط بين حصول الملكة والفهم والوعي ؛ لأن الفهم والوعي يشترك فيهما الناس جميعاً ، من عالم وعامي؛ وهما نقطة الانطلاق لتحصيل الملكة · يقول ابن خلدون مفرقاً بينهما وبين الملكة : « وهذه الملكة هي غير الفهم والوعي ؛ لأنا نجد فهـم المسألة الواحدة من الفن الواحد ووعيهـا ، مشتركاً بين من شدا في ذلك الفن ، وبين مـن

هو مبتدىء فيه ؛ وبين العامي الذي لم يحصل علماً ، وبين العالم النحرير • والملكة انما هي للعالم أو الشادي في الفنون دون سواهما • فدل على ان هذه الملكة غير الفهم والوعي(١٩).

ومما يزيد في وضوح فكرة الملكة لدينا ـ كما يفهمها ابن خلدون ـ هو أنها جسمانية. وبهذا الصدد يقول : « والملكات كلها جسمانية، سواء كانت في البدن أو الدماغ من الفكر وغيره ••• والجسمانيات كلها محسوسة فتفتقر الى التعليم(٢٠) » •

بيد أن الملكة هي نتيجة صناعة من الصنائع ؛ وعنها يحصل قانون علمي ، هو عقل جديد • يقول ابن خلدون في ذلك : «والصنائع أبداً يحصل عنها وعن ملكتها قانون علمي مستفاد من تلك الملكة • فلهذا كانت الحنكة في التجربة تفيد عقلا ، والملكات الصناعية تفيد عقلا ، والحضارة الكاملة تفيد عقلا ؛ لأنها مجتمعة من صنائع في شأن تدبير المنزل ، ومعاشرة أبناء الجنس ، وتحصيل الآداب في مخالطتهم ، ثم القيام بأمور الدين ، واعتبار آدابها وشرائطها • وهذه كلها قوانين تنتظم علوماً ؛ فيحصل منها زيادة عقل(٢١) »•

وهذا يعني أن الملكة عادة ناتجة عن صناعة من الصنائع • ونظراً لأن ابن خلدون يعني بالصناعة معناها الشامل الذي يشمل اللغة والآداب والفنون ، فقد كانت الملكة لديه نظرية وعملية ؛ أي عادة فكرية وبدنية • وما يدل على صحة ذلك ، قول ابن خلدون التالي : « فلهم (= الحضر) في ذلك كله آداب ، يوقف عندها في جميع ما يتناولونه ويتلبسون به ، من أخذ وترك ؛ حتى كأنها حدود لا تتعدى • وهي مع ذلك صنائع يتلقاها الآخر عن الأول منهم(٢٢) » •

٢ ـ التعلم والفكر واللغة

(ا) العلوم المقصودة والآلية : يميز ابن خلدون بين نوعين من المعلوم : علوم مقصودة بالذات ؛ وعلوم آلية هي وسيلة للعلوم المقصودة •

آ ـ العلوم المقصودة بالذات : أما العلوم المقصودة بالذات فهي الشرعيات وما يدخل في نطاقها من تفسير وحديث وفقه وعلم كلام ، والفلسفة وما ينضوي تحت لوائها من طبيعيات والهيات(٢٣) •

ويرى ابن خلدون أن هذه العلوم ، ما دامت هي المقصودة ، فلا حرج في أن يتوسع المتعلم في دراستها ؛ ولا بأس اذا وسع فيها الكلام ، وفرع المسائل، واستكشف النظريات، وأتي بالأدلة والبراهين على كل منها • فهذا كله من شأنه أن يمكن المتعلمين مما هم بصدد تعلمه ، ويفتح بصائرهم على معانيها المقصودة ؛ وينتهي بهم الى الحصول على ملكة راسخة فيها •

ان هذه العلوم هي التي يهتم بها المتعلمون ، وهي التي ينبغي لهم أن يقطعوا العمر في تحصيلها ، والنفاذ الى حقائقها • ولهذا لا بد للمعلمين أن يستبحروا فيها ؛ وان يتوقفوا عند كل كبيرة وصغيرة فيها ؛ وأن يناقشوا براهينها ومدى صحتها واستقامتها ؛ لكي يخرج المتعلم منها وقد نفذ الى حقيقتها ، وعرف كل ما يتعلق بها(٢٤) » •

ب ـ **العلوم الآلية :** أما العلوم الآلية فهي وسيلة لتعلم العلوم المقصودة بالذات، كما تشير الى ذلك تسميتها · ويعد ابن خلدون اللغة العربية والحساب والمنطق من هذه العلوم : ان العربية وسيلة لدراسة الشرعيات ؛ وكذلك الحساب ؛ ولا سيما فيما يتعلق بتوزيع الأنصبة من المواريث بحسب مايقتضيه الشرع · أما المنطق فهو الوسيلة لمباحث الفلسفة ؛ وربما كان وسيلة لعلم الكلام ،وأصول الفقه ، على رأي بعضهم(٢٥) ·

بيد أن هذه العلوم هي آلة لغيرها يجب أن يقتصر في دراستها على الأهم دون سواه ؛ وأن لا تفرع فيها المسائل ؛ لأنها ليست هي المقصودة من العلم والتعليم · يقول ابن خلدون بهذا الصدد : « وأما العلوم التي هي آلة لغيرها ، مثل العربية والمنطق وأمثالها ، فلا ينبغي أن ينظر فيها الا من حيث هي آلة لذلك الغير فقط ؛ ولا يوسع فيها الكلام ، ولا تفرع المسائل ؛ لأن ذلك مخرج لها عن المقصود ؛ اذ المقصود منها ما هي آلة له لاغير· فكلما خرجت عن ذلك ، خرجت عن المقصود ،وصار الاشتغال بها لغواً ، مع ما فيه من صعوبة الحصول على ملكتها ، بطولها وكثرة فروعها · وربما يكون ذلك عائقاً عن تحصيل العلوم المقصودة بالذات ، لطول وسائلها ؛ مع ان شأنها أهم ، والعمر يقصر عن تحصيل الجميع على هذه الصورة ؛ فيكون الاشتغال بهذه العلوم الآلية تضييعاً للعمر بما لا يغني(٢٦) » ·

وهنا ينبغي للمعلمين الذين يقومون بتعليم هذه العلوم الآلية ، خلافاً لما هو الشأن في العلوم المقصودة بالذات ، أن لا يتوسعوا في الكلام فيها ؛ وأن لا يفرعوا مسائلها ؛ بل أن يقتصروا على الضروري منها ؛ وهو الذي يحتاجه المتعلم ، لفهم العلوم المقصودة واستخدامها · لكن ذلك ينبغي أن لا يبقى مكتوماً في أنفسهم ، يتصرفون بحسبه فقط ؛ بل لا بد لهم أيضاً من أن ينبهوا عليه المتعلمين ، ويطلعوهم على الغرض من هذه العلوم ، ليقفوا عنده ·

ومع ذلك ، فهذا لا يمنع من يريد التوغل في هذه العلوم ، من أن يتوغل فيها ، بحسب ما يحلو له · فمن نزعت به همته الى ذلك ،فليرق له ما شاء من المراقي ، سواء أكان ذلك مرقى صعباً أم سهلا(٢٣) ·

(٢) وسائل التعلم : لا يقتصر ابن خلدون على تحديد المواد التي ينبغي التوسع فيها ، والتي لا ينبغي التوسع فيها ؛ بل يتطرق أيضاً الى الكلام على التآليف التي ينبغي أن تطلب العلوم بها · وهو يرى أنها يجب أن تكون مطولة وقليلة ؛ لأن كثرة التآليف تعيق عن تحصيل العلوم ؛ والتآليف المختصرة مخلة بأسباب التعليم ·

آ ـ **كثرة التآليف والتحصيل :** ان كثرة التآليف في علم من العلوم ، تعيق المتعلم عن تحصيل هذا العلم ؛ اذا شاء أن يعتمد عليها كلها في دراسته · وذلك لأن المصطلحات المستخدمة في بعضها تختلف عن المصطلحات المستخدمة في الأخرى · وكذلك الطرائق المتبعة في التآليف والايضاح ليست واحدة فيها جميعاً · وهذا وذاك من شأنهما أن يضيعا عقول المتعلمين ؛ ويخلقا المصاعب في وجوههم ؛ فيعجزوا عن استحضار ما ورد في هذه التآليف ·

وهذا من شأنه أن يلحق الضرر بالمتعلم ؛ وأن يقيم في وجهه العوائق ؛ اذ ان منصب التحصيل لا يسلم الا بعد حفظه هذه التآليف كلها أو أكثرها ، مع مراعاة الطرائق المتبعة فيها . ولما كان عمر المتعلم محدوداً لا يفي بتحصيل ما كتب في صناعة واحدة ، اذا تجرد لها ، كان لا بد من أن يقع في القصور ؛ وأن يقف به علمه وتعلمه دون رتبة التحصيل(٢٨).

ومن هنا كان لا بد للكتب التي توضع بين أيدي المتعلمين ، ويطلب منهم استحضار ما ورد فيها ، أن تكون قليلة من ناحية ؛ وأن تكون المصطلحات الواردة فيها متقاربة متشابهة ، من ناحية أخرى .

ب ـ التعليم والمختصرات المخلة به : وكما ان كثرة التآليف عائقة عن تحصيل العلوم، كذلك المختصرات المؤلفة فيها مخلة بتعلمها. يقول ابن خلدون في هذا الصدد : « ذهب كثير من المتأخرين الى اختصار الطرق والأنحاء في العلوم ، يولعون بها ، ويدونون منها برنامجاً مختصراً في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها ، باختصار في الألفاظ ، وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن ، وصار ذلك مخلا بالبلاغة ، وعسراً على الفهم(٢٩) » .

وهذا يؤدي الى خلل التعليم وفساده ؛ لأسباب منها :

أولا ـ يرجع اخلال المختصرات بالتعليم الى التخليط الناشىء عن عملية الاختصار نفسها ؛ فتلقى الغايات من العلم على المتعلم ، وهو بعد عاجز عن ادراكها ، غير مستعد لقبولها .

ثانياً ـ أما السبب الثاني في هذا الاخلال ، فيرجع الى صعوبة فهم العبارات المختصرة: فالعبارات المختصرة تأخذ من وقت المتعلم وجهده الشيء الكثير ، دون أن يخرج من ذلك، في كثير من الأحيان ، بجدوى أو طائل .

ثالثاً ـ وأما السبب الثالث في هذا الاخلال ، فيرجع الى ضعف الملكة الناتجة عن التعلم في هذه المختصرات ، وكونها قاصرة عن الملكات الحاصلة من دراسة المطولات(٣٠) .

ج ـ موازنة بين المختصرات والمطولات: واذا سألنا ابن خلدون عن سر رسوخ الملكات الحاصلة عن التعلم في المطولات ، وعدم رسوخ الملكات الحاصلة عن التعلم في المختصرات ، عزا ذلك الى ما في المطولات من تكرار ، وخلو المختصرات منه . يقول موازناً بين هذه وتلك : « ثم بعد ذلك ، فالملكة الحاصلة من التعلم في تلك المختصرات ، اذا تم على سداده ، ولم تعقبه آفة ، فهي ملكة قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة ، بكثرة ما يقع في تلك من التكرار والاطالة المفيدين لحصول الملكة التامة(٣١) » .

وهكذا نجد أن كثرة التآليف في العلم الواحد من ناحية، واعتماد المختصرات في العلم من ناحية أخرى ، من شأنهما خلق العوائق في وجوه المتعلمين ، والقعود بهم عن متابعة التحصيل .

(٣) تعلم اللغة : بيد أن التعلم لا يكون من دون وسيلة ؛ وهذه الوسيلة هي اللغة ، سواء كانت ملفوظة أم مكتوبة : فباللغة نتعلم أكثر ما نتعلمه ، وباللغة نعبر عن خوالج نفوسنا .

ولكننا لانعبر عن خوالج نفوسنا الا وفق ضروب التعبير التي تعلمناها وانطبعنا بها . فاللغة ملكة ، ووجه تحصيلها هي الحفظ ، ثم التعبير عن خوالج النفس وفق الأنموذجات المحفوظة . يقول ابن خلدون بهذا الصدد : « الا أن اللغات ، لما كانت ملكات ، كما مر ، كان تعلمها ممكناً شأن سائر الملكات . ووجه التعليم لمن يبتغي هذه الملكة، ويروم تحصيلها، أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف ، ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم ، وكلمات المولدين أيضاً في سائر فنونهم ؛ حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور ، منزلة من نشأ بينهم ، ولقن العبارة عن المقاصد منهم . ثم يتصرف بعدذلك في التعبير عما في ضميره ، على حسب عبارتهم ، وتأليف كلماتهم ، وما وعاه وحفظه من أساليبهم ، وترتيب ألفاظهم ؛ فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال ،ويزداد بكثرتهما رسوخاً وقوة(٣٢) » .

ولكن للفرد أثره مع ذلك في الانطباع بجودة اللغة التي يعبر بها عن خوالجه . فحسب طبعه وفهمه تكون جولة لغته . يقول ابن خلدون بهذا الصدد : « ويحتاج مع ذلك الى سلامة الطبع والتفهم الحسن لمنازع العرب وأساليبهم في التراكيب ، ومراعاة التطبيق بينها وبين مقتضيات الأحوال ، والزمن يشهد بذلك(٣٣) » .

وفضلا عن ذلك ، فلا شك أن جودة الأنموذجات المحفوظة تؤدي الى جودة حصول الملكة اللغوية ؛ ورداءة هذه الأنموذجات تؤدي الى رداءة حصول هذه الملكة ، ما دام أن اللغة ملكة تحصل بالحفظ . وفي هذا يقول ابن خلدون : « وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته في جنسه ، وكثرته من قلته ، تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ . فمن كان محفوظه من شعر حبيب أو العتابي أو ابن المعتز أو ابن هانىء أو الشريف الرضي أو رسائل ابن المقفع أو سهل بن هارون أو ابن الزيات أو البديع أو الصابىء ، تكون ملكته أجود وأعلى مقاماً ورتبة في البلاغة ممن يحفظ شعر ابن سهل من المتأخرين ، أو ابن النبيه ، أو ترسل البيساني أو العماد الأصبهاني ؛ لنزول طبقة هؤلاء عن أولئك . يظهر ذلك للبصير الناقد صاحب الذوق . وعلى مقدار جودة المحفوظ أو المسموع تكون جودة الاستعمال من بعده ، ثم اجادة الملكة من بعدهما : فبارتقاء المحفوظ في طبقته في الكلام ، ترتقي الملكة الحاصلة ؛ لأن الطبع انما ينسج على منوالها ، وتنمو قوى الملكة بتغذيتها(٣٤) » . « وعلى قدر المحفوظ وكثرة الاستعمال تكون جودة المصنوع نظماً ونثراً(٣٥) » .

(٤) **اللغة ولفكر :** بيد أن اللغة قد تحجب المعاني ، ولا سيما في العلوم ذات المصطلحات الفنية ، والتراكيب المنطقية ٠ ولهذا كان الرجوع الى كتب العلماء لتحصيل العلم، ينطوي على عَنَت وابهام بالاضافة الى المتعلم ٠ وقد ذكر ابن خلدون هذه الصعوبات اللغوية فقال : « فأولا دلالة الكتابة المرسومة على الألفاظ المقولة ، وهي أخفها ، ثم دلالة الألفاظ المقولة على المعاني المطلوبة ، ثم القوانين في ترتيب المعاني للاستدلال في قوالبها المعروفة في صناعة المنطق، ثم تلك المعاني مجردة في الفكر اشراكا يقتنص بها المطلوب بالطبيعة الفكرية ، بالتعرض لرحمة الله ومواهبه ٠ وليس كل أحد يتجاوز هذه المراتب بسرعة ؛ ولا يقطع هذه الحجب بسهولة ؛ بل ربما وقف الذهن في حجب الألفاظ بالمناقشات ، أو عثر في اشراك الأدلة بشغب الجدال والشبهات ، وقعد عن تحصيل المطلوب(٣٦) » ٠

ويعتقد ابن خلدون أن المصطلحات العلمية ، والاستدلالات المنطقية ، هي أمور صناعية ؛ وان الأمر الطبيعي هو الفكر ٠ لذلك يجب تجاوزهما الى الفكر ؛ فهو يحل لنا كل معضل ٠ يقول ابن خلدون بصدد المصطلحات العلمية : « ثم من دون هذا الأمر الصناعي، الذي هو المنطق ، مقدمة أخرى من التعلم ، وهي معرفة الألفاظ ودلالتها على المعاني الذهنية ، تردها من مشافهة الرسوم بالكتاب، ومشافهة اللسان بالخطاب ٠ فلا بد أيها المتعلم من مجاوزتك هذه الحجب كلها الى الفكر في مطلوبك(٣٧) » ٠ ويقول بصدد المنطق : « ثم الصناعة المنطقية هي كيفية فعل هذه الطبيعة الفكرية النظرية ، تصفه لتعلم سداده من خطئه ؛ لأنها وان كان الصواب لها ذاتياً ، الا أنه قد يعرض لها الخطأ في الأقل في تصور الطرفين على غير صورتهما ، من اشتباه الهيئات في نظم القضايا وترتيبها للنتاج ؛ فتعين المنطق للتخلص من ورطة هذا لفساد ، اذا عرض ٠ فالمنطق اذاً أمر صناعي مساوق للطبيعة الفكرية ، ومنطبق على صورة فعلها ٠ ولكونه أمراً صناعياً استُغْنِيَ عنه في الأكثر ٠ ولذلك تجد كثيراً من فحول النظار في الخليقة، يحصلون على المطالب في العلوم دون صناعة المنطق(٣٨) » ٠

واذن ، فالخروج من حجب الألفاظ الى فضاء الفكر الواسع ، هو الطريق الذي يجب على المتعلم أن يسلكه ، ليصل الى العلم والحقيقة ٠ يقول ابن خلدون في هذا الصدد : « فاذا ابتليت بمثل ذلك ، وعرض لك ارتباك في فهمك ، أو تشغيب بالشبهات في ذهنك ، فاطرح ذلك ، وانتبذ حجب الألفاظ وعوائق الشبهات ، واترك الأمر الصناعي جملة ، واخلص الى فضاء الفكر الطبيعي الذي فطرت عليه ، وسرِّح نظرك فيه ، وفرِّغ ذهنك له ، للغوص على مرامك منه ، واضعاً لها حيث وضعها أكابر النظار قبلك ، متعرضاً للفتح من الله ، كما فتح عليهم في ذهنهم من رحمته ، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ٠ فاذا فعلت ذلك ، أشرقت عليك أنوار الفتح من الله ، بالظفر بمطلوبك ؛ وحصل الالهام الوسط الذي جعله الله من مقتضيات ذاتيات هذا الفكر ، وفطره عليه ، كما قلنا ٠ وحينئذ فارجع به الى قوالب الأدلة ، وصورها ؛ فأفرغه فيها، ووفه حقه من القانون الصناعي؛ ثم اكسه صور الألفاظ ، وأبرزه الى عالم الخطاب والمشافهة ، وثيق العرى ، صحيح

البنيان(٣٩) » . « وذلك ان الفكر الانساني طبيعة مخصوصة فطرها الله ، كما فطر سائر مبتدعاته ؛ وهو وجدان حركة للنفس في البطن الأوسط من الدماغ ، تارة يكون مبدأ للأفعال الانسانية على نظام وترتيب ؛ وتارة يكون مبدأ لعلم ما لم يكون حاصلا بأن يتوجه الى المطلوب(٤٠) » .

٣ ـ أصول التعليم

(أ) التعليم وأساسه النفسي : يرى ابن خلدون أن الكثيرين من المعلمين يجهلون طرائق التعليم وافاداته ؛ مما يجعلهم يعتقدون بأن التعليم الجيد هو الذي يكون بعرض أمهات المسائل أمام المتعلم ، في سبيل أعمال فكره فيها ، وايجاد حلولها . يقول مبينا ذلك : « وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا ، يجهلون طرق التعليم وافاداته ؛ ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه ، المسائل المقفلة من العلم ، ويطالبونه باحضار ذهنه في حلها ؛ ويحسبون ذلك مراناً على التعليم ، وصواباً فيه ؛ ويكلفونه وعي ذلك وتحصيله ؛ ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها ؛ وقبل أن يستعد لفهمها(٤١) » .

بيد أن هذا النوع من التعليم سيء في رأي ابن خلدون ؛ وليس له من نتيجة سوى ابتعاد المتعلم عن التعليم، وهجرانه له . يقول معللا : «واذا ألقيت عليه الغايات في البداءات؛ وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعي ، وبعيد عن الاستعداد له ، كل ذهنه عنها ، وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه ؛ فتكاسل عنه ، وانحرف عن قبوله ، وتمادى في هجرانه ؛ وانما أتى ذلك من سوء التعليم(٤٢) » .

واذا أنعمنا النظر قليلا في هذا الكلام ، وجدنا أن ابن خلدون يحدثنا عن أمرين هما مفتاح فكرته في الطريقة الصحيحة في التعليم ، أما الأمر الأول فهو « وجود استعداد » تجب مراعاته ؛ في حين أن الأمر الثاني هو « سوء التعليم » في حال عدم مراعاة هذا الاستعداد . وهذا يدل على أن ابن خلدون يريد أن يبني طريقة التعليم على أساس من معرفة الأصل النفسي الذي يعتمد عليه؛ وهو الاستعدادات . يقول مفصحاً عن وجهة نظره : « فان قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجيا ؛ ويكون المتعلم أول الأمر عاجزاً عن الفهم بالجملة ، الا في القليل ، وعلى سبيل التقريب والاجمال والأمثال الحسية(٤٣) » .

لكن هذه الاستعدادات قابلة للنمو ، وبنموها يحصل التعليم ، الى أن يصل الى غايته . يقول ابن خلدون بهذا الصدد : « ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا قليلا ، بمخالفة ذلك الفن ، وتكرارها عليه ، والانتقال فيها من التقريب الى الاستيعاب الذي فوقه؛ حتى تتم الملكة في الاستعداد ، ثم في التحصيل ، ويحيط بمسائل الفن(٤٤) » .

وهاتان الحقيقتان النفسيتان : وجود الاستعداد ونموه ، هما اللتان جعلتا ابن خلدون يضع مبدأين تربويين موازيين لهما ، وقائمين عليهما . أما المبدأ الأول فهو مراعاة الاستعداد عند المتعلم ؛ وأما المبدأ الثاني فهو مراعاة المستوى الذي بلغه هذا الاستعداد(٤٥).

ومن هذين المبدأين تنتج نظرية ابن خلدون في التكرارات الثلاثة ، التي عدها الطريقة الصحيحة في التعليم ؛ وهي التي سنتكلم عليها في الفقرة التالية :

(٢) طريقة التكرارات الثلاثة : لخص ابن خلدون نظريته في التكرارات الثلاثة في فقرة قصيرة استهلها بضرورة مراعاة التدرج في التعليم ، فقال : «ان تلقين العلوم للمتعلمين انما يكون مفيداً اذا كان على التدريج ، شيئاً فشيئاً ، وقليلا قليلا(٤٦) » ٠

وبعد أن يطالعنا بهذه القاعدة ، يشرح لنا وجوه هذا التدرج ، ويحدده لنا بثلاثة تكرارات :

١ ـ أما في التكرار الأول فيلقى على المتعلم مسائل من كل باب من الفن المراد تعليمه اياه ٠ وهذه المسائل لا تتعدى أصول ذلك الباب ؛ وهي تشرح بطريقة التقريب على سبيل الاجمال ، مع مراعاة قوة عقل المتعلم ، واستعداده لتقبل ما يشرح له ٠ حتى اذا فرغ المعلم من شرح أصول الباب الأول ، انتقل الى أصول الباب الثاني ٠ وهكذا حتى ينتهي من ذلك الفن كله ؛ وهو ما زال يأتي بالشروح الاجمالية ٠

ومتى نفض المتعلم يده من هذا الفن بعد هذا التكرار الأول ، حصلت له ملكة فيه ، الا أنها جزئية وضعيفة ٠ لكنها تظل مع ذلك ذات فائدة كبيرة ؛ لأنها هيأت المتعلم لفهم العلم وتحصيل مسائله ٠

٢ ـ واذا انتهى المتعلم من تعلم العلم بحسب التكرار الأول ؛ عاد به المعلم اليه ، في تكرار ثان أكثر استيفاء ؛ فيخرج من الاجمال الى التوسع ، متعرضاً في كل مسألة الى وجوه الخلاف فيها ٠ ومتى فرغ من باب انتقل الى الباب الذي يليه ؛ ومتى انتهى من مسألة انتقل الى مسألة أعوص منها ٠ وهكذا حتى يأتي على الفن من جديد ٠ وفي هذه الحالة تجود ملكة المتعلم ، وتصبح أشد مما كانت عليه في التكرار الأول ٠

٣ ـ ولا يكاد المتعلم يصل الى هذا الحد ، حتى ينتقل به المعلم الى العلم نفسه من جديد ، في تكرار ثالث ٠ وعندئذ لا يترك عويصاً ولا مهماً ولا مغلقاً الا ويوضحه له ، ويفتح أمامه مغاليقه ، ويلفت اليه انتباهه ٠

بعد هذا التكرار الثالث تستولي ملكة هذا العلم على المتعلم ، ويصبح عالماً متمكنا منه ، يستطيع أن يميز فيه المسائل ، وأن يقلب فيه وجوه النظر(٤٧) ٠

تلكم هي طريقة التكرارات الثلاثة ؛ وهي تصلح للمتعلمين العاديين الذين لا يبدون نبوغاً أو عبقرية ٠ أما المتعلمون النابهون ، فبامكانهم أن يختصروا الشوط بحسب ذكائهم ونبوغهم ٠ يقول ابن خلدون منبهاً الى الاستثناء : « هذا وجه التعليم المفيد ؛ وهو ـ كما رأيت ـ انما يحصل في ثلاثة تكرارات. وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك ، بحسب ما يخلق له ، ويتيسر عليه(٤٨) » ٠

(٣) مبادىء تعليمية : وزيادة على طريقة التكرارات الثلاثة نجد في مقدمة ابن خلدون ، مبادىء تعليمية تسترعي الانتباه ، بعضها ينطبق على الأمور العملية ، وبعضها الآخر ينطبق على الأمور العملية والنظرية على حد سواء ٠

آ ـ **المبادىء العامة :** هناك بعض المبادىء التعليمية العامة التي يشير اليها ابن خلدون في تضاعيف مقدمته ؛ وهي ـ وان ذكرها في معرض حديثه عن الصنائع ـ تصدق على تعلم العلوم والصنائع على حد سواء ؛ نظراً لأنه يفهم الصناعة فهماً واسعاً ؛ كما أشرنا الى ذلك سابقاً .

١ ـ **الانتقال من البسيط الى المركب :** يرى ابن خلدون أن الصنائع منها البسيط ومنها المركب ؛ وان تعليم البسيط متقدم على تعليم المركب . ويعلل ذلك بأمرين اثنين: بساطة البسيط واختصاصه بالضروري . وبهذا الصدد يقول : « ثم ان الصنائع منها البسيط ومنها المركب ؛ والبسيط هو الذي يختص بالضروريات ؛ والمركب هو الذي يكون للكماليات ؛ والمتقدم منها في التعليم هو البسيط لبساطته أولا ؛ ولأنه مختص بالضروري الذي تتوفر الدواعي على نقله ؛ فيكون سابقاً في التعليم ؛ ويكون تعليمه لذلك ناقصاً(٤٩) » .

ومن الملاحظ أن ابن خلدون يتكلم على الصنائع ، وهو بصدد هذا المبدأ . وهذا ينطبق على التعليم ؛ اذ ان التعليم من جملة الصنائع ، كما يقول لنا هو بالذات(٥٠) .

٢ ـ **انتقال أثر التعليم :** وكذلك يضع ابن خلدون مبدأ تعليمياً آخر ؛ وهو انتقال اثر التعليم من علم الى علم ؛ بحيث يؤدي فهم بعض العلم الى فهم بعضه الآخر . يقول ابن خلدون بصدد ذلك : « لأن المتعلم اذا حصل ملكة ما في علم من العلوم ، استعد بها لقبول ما بقي ، وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض الى ما فوق حتى يستولي على غايات العلم(٥١) » .

بيد أن ابن خلدون لا يقف بمبدئه هذا عند هذا الحد ، بل يتوسع فيه ، حتى يجعله يفيد في الانتقال من صناعة الى صناعة ؛ ومن علم الى علم . يقول في ذلك : « ولا شك ان كل صناعة مرتبة يرجع منها على النفس أثر يكسبها عقلا جديداً تستعد به لقبول صناعة أخرى ؛ ويتهيأ بها العقل لسرعة الادراك للمعارف(٥٢) » .

وهكذا نجد أن ابن خلدون يعتقد بامكان انتقال أثر التعليم ، لا ضمن العلم الواحد والصناعة الواحدة فقط ، بل من علم الى علم ، ومن صناعة الى صناعة أيضاً .

٣ ـ **مبدأ الاستعمال والتكرار :** يضيف ابن خلدون الى المبدأين السابقين مبدأ ثالثاً ؛ وهو مبدأ الاستعمال والتكرار : ان المرء اذا شاء أن يتعلم صناعة من الصنائع ، أو علماً من العلوم ، لا بد له من أن يبدأ باستعمال ما يلقى اليه أولا ؛ ثم أن يكرره مرات ومرات . وبهذا الصدد يقول : « والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل ، وتكرره مرة بعد أخرى ، حتى ترسخ صورته ؛ وعلى نسبة الأصل تكون الملكة(٥٣) » .

ملاحظة وتعقيب : اذا أنعمنا النظر قليلا في المبادىء العامة، وطريقة التكرارات الثلاثة، وجدنا أن هذه الطريقة انما تقوم على تلك المبادىء : ان مبدأ الاستعمال والتكرار ظاهر لا يحتاج الى شرح . أما مبدأ الانتقال من البسيط الى المركب ، فيظهر في ازدياد التعقيد

عند الانتقال من تكرار الى تكرار • وكذلك مبدأ انتقال أثر التعليم واضح كل الوضوح : فالمتعلم في التكرار الثاني يعتمد على الملكة الضعيفة التي حصلها في التكرار الأول ؛ وفي التكرار الثاني يعتمد أيضاً على الملكة التي قويت في التكرار الثاني •

ب ـ **المبادىء العملية :** والى جانب المبادىء الثلاثة التي تصدق على الناحية العملية والناحية النظرية معاً ، وضع ابن خلدون مبدأين يصدقان على الناحية العملية فقط •

١ ـ **مبدأ المباشرة :** يعتقد ابن خلدون أن المرء لا يستطيع تعلم صناعة من الصنائع ما لم يباشرها بنفسه • يقول بهذا الصدد : « ان الصناعة هي ملكة في أمر عملي فكري ؛ وبكونه عملياً هو جسماني محسوس • والأحوال الجسمانية المحسوسة فنقلها بالمباشرة أوعب لها وأكمل ؛ لأن المباشرة في الأحوال الجسمانية المحسوسة أتم فائدة(٥٤) » •

بيد أن المبادىء العامة تصدق على الأمور النظرية والعملية معاً • ولهذا فان كلا منها يصدق هنا أيضاً •

٢ ـ **مبدأ المعاينة :** ولكن المرء لا يستطيع أن يباشر صناعة من الصنائع ، ما لم تسبق له معاينة من يقومون بها • ولهذا كانت الأخبار في الأمور العملية غير مجدية تماماً • يقول ابن خلدون بهذا الصدد : « ونقل المعاينة أوعب وأتم من نقل الخبر والعلم ، فالملكة الحاصلة عنه أكمل وأرسخ من الملكة الحاصلة عن الخبر(٥٥) » •

وهنا نجد أن المبادىء العامة الثلاثة صادقة أيضاً •

(٤) **القواعد التعليمية :** لا يكتفي ابن خلدون بوضع هذه المبادىء التعليمية ؛ بل ينصح المعلمين باتباع القواعد التالية :

١ ـ **قاعدة الكتاب الواحد :** ينصح ابن خلدون المعلمين بالاكتفاء بكتاب واحد يحملون المتعلمين على فهمه ، قبل الانتقال الى كتاب آخر • وهذا نص كلامه : « ولا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذي أكب على التعلم منه ، بحسب طاقته ، وعلى نسبة قبوله للتعلم ، مبتدئاً كان أو منتهياً ؛ ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها ، حتى يعيه من أوله الى آخره ؛ ويحصل أغراضه ؛ ويستولي منه على ملكة بها ينفذ الى غيره(٥٦) » •

ويعلل ذلك بأن الجمع بين عدة كتب يؤدي الى اختلاط الأمر على المتعلم ، وعجزه عن الفهم ، واصابته بالكلل والتعب وانطماس الفكر ؛ ثم يأسه من التحصيل ، وهجر العلم والتعليم(٥٧) • وهذه القاعدة تطبيق لمبدأ الانتقال من البسيط الى المركب •

٢ ـ **قاعدة تجميع المجالس :** ولا يكاد ابن خلدون يفرغ من نصيحته الأولى ، حتى يتبعها بنصيحة ثانية ؛ وهي عدم لجوء المعلم الى تفريق مجالس التدريس على المتعلم ؛ لأن ذلك يؤدي الى النسيان • يقول شارحاً فكرته : « وكذلك ينبغي لك أن لا تطول على المتعلم في الفن الواحد ، بتفريق المجالس ، وتقطيع ما بينها ؛ لأن ذلك ذريعة الى النسيان، وانقطاع مسائل الفن بعضها عن بعض ؛ فيعسر حصول الملكة بتفريقها • واذا كانت

أوائل العلم وأواخره حاضرة عند الفكرة ،مجانبة للنسيان ، كانت الملكة أيسر حصولا ، وأحكم ارتباطاً ، وأقرب صنعة(٥٨) » .

وهذه القاعدة تطبيق لمبدأ الاستعمال والتكرار ؛ لأن الملكات انما تحصل بتتابع الفعل وتكراره ؛ واذا تنوسي الفعل ، تنوسيت الملكة الناشئة عنه(٥٩) .

٣ ـ قاعدة تفريق العلوم : ثم ينتقل ابن خلدون الى نصيحته الثالثة ؛ وهي تقضي بعدم الجمع بين علمين أو أكثر على المتعلم، يقول مبيناً ذلك : « ومن المذاهب الجميلة ، والطرق الواجبة في التعليم ، أن لا يخلط على المتعلم علمان معاً(٦٠) » .

ويعلل ذلك بانقسام البال ؛ مما يؤدي الى عدم الظفر بأي من هذين العلمين . يقول في تعليله هذا : « فانه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما ، لما فيه من تقسيم البال ، وانصرافه عن كل واحد منهما الى تفهم الآخر ؛ فيستغلقان معاً ويستصعبان ؛ ويعود منهما بالخيبة(٦١) » .

وهذه القاعدة تطبيق لمبدأ الاستعمال والتكرار . ولكنه تطبيق لجانبه السلبي ؛ اذ ان الانشغال بعلم من العلمين انما يعني الانصراف عن أحدهما ، وعدم تكراره ؛ عدا التشويش الذي يؤثر به كل منهما في الآخر .

خاتمة ـ نقد وتقدير

ولكن ، ما قيمة ما كتبه ابن خلدون في التربية والتعليم ؟ لا شك أن الاجابة عن هذا السؤال ينبغي أن تأتي مبنية على الآراء التي عرضناها ؛ فنمحص فيها مبينين ما لابن خلدون وما عليه . ولكن ينبغي أن لا نعد نقدنا بخساً لقيمته ؛ فالرجل لم يكن يستطيع أن يقفز فوق عصره وبيئته ؛ والحقائق النفسية والتربوية التي سنجابه آراءه بها ، انتظرتها الانسانية أربعة قرون أو خمسة بعد وفاته ، حتى عرفتها ؛ وربما عرفتها بطرائق وأساليب لم تكن معروفة في عصر ابن خلدون .

ولكن ، يجدر بنا قبل مناقشة ابن خلدون ، أن نضع أمام القارىء بعض ما قاله بعض دارسيه . يقول الدكتور علي عبد الواحد وافي : « لابن خلدون في مسائل التربية والتعليم وتاريخهما وفي علم النفس التربوي والتعليمي، وما يتصل بذلك ، بحوث قيمة أصيلة ، تضعه في صف كبار الأئمة المجددين في هذه الميادين(٦٢) » .

وتقول السيدة فتحية سليمان : « وفي رأي كاتبة هذا البحث ، يعتبر ابن خلدون أيضاً من الكتاب العرب القلائل الذين كتبوا في التربية والتعليم كتابة الخبير ؛ وكان له مذهب واضح مستمد من فلسفته الواقعية . فقد اهتم ابن خلدون بدراسة المجتمعات وتطورها ، من عهد البداوة حتى عهد التحضر؛ واعتبر « العلم والتعليم » ظاهرة من الظواهر الاجتماعية التي تميز المجتمعات المتحضرة(٦٣)» .

ولكننا لن نقنع بهذه الآراء المعممة ؛ ونريد أن ننظر نظرة تحليلية فاحصة الى كل ما قدمناه من آراء ابن خلدون في التربية والتعليم ؛ ما دام ما يهمنا في نهاية التحليل هو مضمون هذه الآراء بالذات • لهذا سنخصص لابن خلدون الصفحات التالية ، نبين فيها ما له وما عليه ، وفقاً لما يراه العلم•

(أ) **الجوانب المشرقة :** يمكننا أن نرى عدة جوانب مشرقة في آراء ابن خلدون التربوية والتعليمية ؛ وهي التالية :

آ ــ **ربطه التربية والتعليم بالحياة الاجتماعية :** كان ابن خلدون أول من نظر الى المجتمع نظرة علمية ؛ وقد كان بهذا المعنى ، أول من عدّ التربية والتعليم ظاهرتين اجتماعيتين •

والحقيقة ، انه يرى أن التربية والتعليم لا يختلفان عن الظواهر الاجتماعية الأخرى ، من حيث انهما ظاهرتان اجتماعيتان : فهما تنشآن عن قيام المعرفة والعلم اللذين هما من نتاج الفكر البشري في المجتمعات الانسانية • وازدهار الصنائع والعلوم وتقدمها لا يحدثان الا اذا تناقلت الأجيال هذه العلوم وتلك الصنائع • لكن تناقلها يعني التربية والتعليم • ومن هنا كانت التربية والتعليم ظاهرتين اجتماعيتين ناتجتين بالضرورة عن الحياة الاجتماعية • وهذا يعني ، أن التربية والتعليم صناعتان من صنائع المجتمع ؛ تنشآن فيه ؛ وتتطوران بتطوره ؛ وتزدهران بازدهاره • وهذه نظرة أصيلة لا بد من تسجيلها لابن خلدون •

ب ــ **الملكة عادة جسمانية وعقلية مكتسبة:** وفهم ابن خلدون للملكة أصح من فهم الفلاسفة لها : فقد رأوا أنها قوة نفسية مستقلة ، هي مبدأ فعل معين من أفعال النفس؛ كالحساسية أو التفكير أو التذكر الخ ••• أما هو فقد رأى أن الملكات هي عادات مكتسبة يصل اليها المرء نتيجة تحصيله المعارف أو الصنائع ؛ وهي تحصل من استعمال الأفعال وتكرارها ، حتى ترسخ صورتها •

لقد حفظ ابن خلدون ــ برأيه هذا ــ للنفس وحدتها وتكامل قدراتها ؛ ولم يقسمها الى قوى مستقلة ذات « مناطق نفوذ » مستقلة ، كما فعل فلاسفة القرون الوسطى •

وفضلا عن ذلك ، فقد جعل الملكة جسمانية وعقلية معاً ؛ فلم يفرق بين تعليم عقلي وآخر عملي؛ بل ربط القوى العقلية والجسمانية ، وجعلها تتعاون في اكتساب الملكة • وهذا الرأي هو الذي أخذ به علم النفس الحديث ؛ وان كان يفضل استعمال كلمة قدرة أو قوة بدلا من كلمة ملكة ؛ لما تحمله هذه اللفظة من المعنى الذي حملها اياه فلاسفة القرون الوسطى •

جـ ــ **اقامته التعليم على أساس نفسي :** بيد أن الفكرة الرائعة التي أتحفنا ابن خلدون بها هي قوله بضرورة اقامة التعليم على أسس نفسية • وقد حصر هذا الأساس النفسي بأمرين ، هما ــ كما رأينا ــ وجود الاستعداد ومستوى نموه ؛ وجعل التعليم الجيد مرتبطاً

بهما . فاذا راعاهما المعلم ، بلغ بالمتعلم درجة جيدة من العلم ؛ واذا لم يراعهما ، كان تعليمه سيئاً .

لكنه لم يقتصر على هذين الأمرين ؛ بل جعل التقريب والاجمال والأمثلة الحسية أموراً لا بد من اللجوء اليها في التعليم ؛ لكي يفهم المتعلم العلم الذي يقدم اليه . أما التقريب فهو ما نسميه التبسيط بلغة العصر ؛ وهو ظاهرة منتشرة في عصرنا ، ساعد على انتشارها اختراع المطبعة ، حتى ان سلاسل كاملة في أنواع الثقافة تصدر باللغات المختلفة في الأقطار المختلفة ، مراعية هذا المبدأ . وأما الاجمال فهو البدء بتقديم فكرة مجملة عن الموضوع قبل تفصيلها والتوسع فيها ؛ لتكون مساعدة على الفهم ومسهلة للادراك . وهذا مبدأ صحيح في الادراك ؛ وعلى أساسه قامت المدرسة الشكلانية (الغشطالت) في علم النفس ، التي ترى ان الادراك يبدأ بالكل الغامض ؛ ثم ينتقل الى أجزائه لتوضيحها ؛ ثم ينشىء بعدئذ من هذه الأجزاء الواضحة ، كلا واضحاً . أما ضرب الأمثلة الحسية فهو أمر نادت به التربية الحديثة ، وأقره علم النفس التربوي الذي يرى أن العقل يبدأ بادراك المحسوس ؛ ثم ينتقل الى ادراك المجرد . وكل هذا قد أشار اليه ابن خلدون وأدركه ادراكاً واضحاً وصحيحاً .

د ـ **اقامته مبادىء التعليم على أسس صحيحة :** وفضلا عن ذلك ، فقد وضع لنا مبادىء تعليمية ، عامة وعملية ، لا تزال التربية تأخذ بها حتى وقتنا هذا : فمبدأ الانتقال من البسيط الى المركب مبدأ تربوي مقرر . وكذلك مبدأ الاستعمال والتكرار مبدأ صادق في مجال اكتساب العادات وتثبيت الذكريات .

أما من الناحية العملية فقد وضع مبدأين صحيحين ، هما مبدأ المباشرة ومبدأ المعاينة . ويعني بالمباشرة القيام بالفعالية العملية : فمن يريد تعلم فعالية عملية ، يجب عليه أن يباشرها بنفسه ، لا أن يكتفي بمعاينة من يقومون بها ، أو الاصغاء الى كلام من يتحدثون عنها . ولكن المعاينة ضرورية مع ذلك ؛ لأنها الطريق الى المباشرة . وتعني المعاينة أن يشاهد (يعاين) المتعلم المتمرسين بالفعالية العملية ، وهم يقومون بها ويؤدونها . ولا شك أن من يريد مباشرة فعالية ما ، هو بحاجة الى معاينتها قبل مباشرتها .

لا شك أن هذين المبدأين العمليين صحيحان : انهما عمدة التعليم العملي في المدارس الصناعية في الدروس العملية ؛ وفي دور المعلمين في دروس التطبيقات المسلكية .

(٢) الجوانب المعتمة : ونعني بها آراء ابن خلدون التي خالط فيها الصواب ؛ كما يخالط النور الظلام في أول الليل :

آ ـ **استعمال طريقة التكرارات الثلاثة :** لقد اعتقد ابن خلدون أن المعلم هو كل شيء في عملية التعليم ؛ وان المتعلم يجب أن يقف موقف المتلقي منه . ولهذا لم يؤت مبدؤه في التكرارات الثلاثة أكله كاملة . لا شك أن المبدأ الذي قامت عليه هذه الطريقة ينسجم مع نتائج علم النفس : فهي تبدأ بالادراك الاجمالي ، ثم تنتقل الى توضيح تفاصيله ، في

تكرار بعد آخر • ولكن هذا لا يمنع من أن تكون غير ذات قيمة تعليمية في التطبيق ؛ اذ ان العبرة ليست في المبدأ ، بل في طريقة استعماله •

والحقيقة أن ابن خلدون أراد من المعلم أن يكون صاحب الفعالية الكلية في طريقة التكرارات الثلاثة ؛ فوضع المتعلم في موقف المتلقي لا في موقف من يقوم بالفعالية • وهذا من شأنه أن يشل قوى المتعلم الفكرية ؛ ويقعد به عن ادراك مرامي العلم واتقانه • ولعل المتعلمين الذين شكا من انهم لا يناقشون ولا يناظرون ، ان لم يتعلموا بهذه الطريقة ، فقد تعلموا بطريقة شبيهة بها على الأقل •

هنا نلاحظ أن الخطأ امتزج بالصواب ؛ وان المبدأ النظري الصحيح أدى الى تطبيق عملي خاطىء •

ب ـ رأيه في انتقال أثر التعليم : أما رأيه في انتقال أثر التعليم من موضوع كنا تعلمناه ، الى موضوع نحن بسبيل تعلمه ، فهو صحيح من جهة ، خاطىء من الأخرى •

انه صحيح في خصوصه ؛ لأن علم النفس التربوي يقر أننا اذا تعلمنا موضوعاً ما ، أدى ذلك الى استفادتنا من تعلمه في تعلم موضوع آخر ؛ بشرط أن يكون من جنسه ، أو قريباً منه ، أو مشابهاً له ؛ كأن يؤدي حفظ شعر شاعر الى حفظ شعر شاعر آخر ، أسلوبه قريب من أسلوبه ؛ أو يؤدي حفظ الشعر عموماً الى سهولة حفظ الشعر عموماً • وكأن يؤدي اتقان مسائل الرياضيات الى سهولة فهم مسائل علم الفلك ؛ وهكذا •••

ولكنه خاطىء في عمومه ؛ لأن اتقان المواد العلمية لا يسهل علينا اتقان المواد الأدبية ؛ والعكس صحيح أيضاً ؛ ولأن البراعة في الانشاء الأدبي لا تؤدي الى البراعة في حل المسائل الرياضية •

وهكذا نرى أن ابن خلدون وقع في الخطأ حينما عمم ؛ وأنه لو لم يعمم لظل مبدؤه صحيحاً في المتشابهات • ومع ذلك ، يجب علينا أن لا نلومه على ذلك ؛ اذ ان مبدأ الانتقال ظل يعد صحيحاً الى عهد قريب ، وعلم النفس التربوي الحديث هو الذي أثبت أن الانتقال يحدث فقط في المواد المتشابهة • وقد أثبت ذلك بالتجريب الذي لم يعرفه عصر ابن خلدون في الأمور النفسية والتربوية •

* * *

□ الهـوامش :

١ ـ ساطع الحصري : دراسات عن مقدمة ابن خلدون ، دار الكشاف بيروت ، ج ٢ ، ص ١٠٠ .
٢ ـ المصدر السابق ص ١٠٠ .
٣ ـ المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٨٣ . تحقيق علي عبد الواحد وافي ، لجنة البيان العربي ١٩٦٠ .
٤ ـ المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٨٣ .
٥ ـ المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٧٥ .
٦ ـ المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٨٣ .
٧ ـ المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٧٥ .
٨ ـ المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٧٩ .
٩ ـ المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٨٣ .
١٠ـ المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٧٥ ـ ٩٧٦ .
١١ـ المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٨٤ ـ ٩٨٥ .
١٢ـ المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٩٠ .
١٣ـ المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٨٩ ـ ٩٩٠ .
١٤ـ المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٨٥ .
١٥ـ المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٢٣ .
١٦ـ المقدمة ، ج ٣ ، ٩٨٧ .
١٧ـ المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٨٧ .
١٨ـ المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٨٥ .
١٩ـ المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٨٥ .
٢٠ـ المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٨٥ .
٢١ـ المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٧٢ .
٢٢ـ المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٨٩ .
٢٣ـ المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٢٨ . لجنة البيان العربي ١٩٦٢ .
٢٤ـ المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٢٨ ـ ١٢٢٨ .
٢٥ـ المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٢٨ .
٢٦ـ المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٢٩ .
٢٧ـ المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٢٩ .
٢٨ـ المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٣٠ .
٢٩ـ المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٣٢ .
٣٠ـ المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٣٢ .
٣١ـ المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٣٢ .
٣٢ـ المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٧٥ ـ ١٢٧٦ .
٣٣ـ المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٧٦ .
٣٤ـ المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٣٠٣ .
٣٥ـ المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٧٦ .
٣٦ـ المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٣٦ ـ ١٢٣٧ .
٣٧ـ المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٣٦ .
٣٨ـ المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٣٥ ـ ١٢٣٦ .
٣٩ـ المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٣٥ .
٤٠ـ المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٣٣ .
٤١ـ المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٣٣ .
٤٢ـ المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٣٤ .
٤٣ـ المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٣٣ .
٤٤ـ المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٣٣ ـ ١٢٣٤ .
٤٥ـ المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٣٣ .
٤٦ـ المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٣٣ .
٤٧ـ المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٣٣ .
٤٨ـ المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٣٣ .
٤٩ـ المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٢٣ .
٥٠ـ المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٨٥ .
٥١ـ المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٣٤ .
٥٢ـ المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٨٩ .
٥٣ـ المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٢٣ .
٥٤ـ المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٢٣ .
٥٥ـ المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٢٣ .
٥٦ـ المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٣٤ .
٥٧ـ المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٣٤ .
٥٨ـ المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٣٤ .
٥٩ـ المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٣٣ .
٦٠ـ المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٣٥ .
٦١ـ المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٢٥ .
٦٢ـ عبد الرحمن بن خلدون، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، مكتبة مصر (دون تاريخ) ص ٢٥١ .
٦٣ـ راجع بحثها : الاتجاهات التربوية في مقدمة ابن خلدون ؛ في أعمال مهرجان ابن خلدون ؛ منشورات المركز القومي للبحوث الاجتماعيةوالجنائية ؛ ص ٤٢٥؛ القاهرة١٩٦٢ .

